دراسات فنية
مخبر الفنون والدراسات الثقافية
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
Algerian Scientific Journal Platform

المجلد:06 العدد:01 (2021) ص386./395

التراث العمراني والمعماري في المنمنمات الجزائرية

الفنان محمد راسم–أنموذجا–

The architectural and architectural heritage in Algerian miniatures -Artist Mohammed Rasim-model

قليل سارة[1]

[1]كلية الآداب واللغات، قسم الفنون، مخبر الفنون والدراسات الثقافية،guellilg@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2020/05/05
تاريخ القبول:
2020/08/09

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التراث
- ✓ المنمنمات
- ✓ المنمنمات الجزائرية
- ✓ العمران
- ✓ محمد راسم

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى توظيف خصائص التراث العمراني بمنطقة الجزائر من خلال منمنمات الفنان التشكيلي الجزائري محمد راسم ومدى سعيه للمحافظة عليه بكل أجزائه عبر التاريخ وتوعية المجتمع بأهميته وتخليد هذه المعالم عبر مختلف العصور بطريقة فنية وجمالية، وإبراز أهمية ما تحتويه الصورة من أبعاد في توثيق وتخليد تراث هذه المنطقة انطلاقا من حرص الفنان محمد راسم على تجسيده في أعماله الفنية التي كان لها وقع كبير على المجتمع الجزائري بصفة خاصة والمجتمعات الأوروبية بصفة عامة .

Article info

Received ……..
Accepted ……..

Keywords:
- ✓ *Heritage*
- ✓ *Miniatures*
- ✓ *Algerian miniatures*
- ✓ *Urbanization*
- ✓ *Mohammed Rasim*

Abstract :

This study aims to reveal the extent to which the characteristics of the urban heritage in Algeria are employed through the miniatures of the Algerian plastic artist Mohamed rassem and the extent to which he seeks to preserve it in all its parts throughout history and to raise the awareness of society of its importance and immortalize these monuments throughout different eras in an artistic and aesthetic way, and to highlight the importance of the dimensions of the image in documenting and immortalizing the heritage of this region, based on the artist Mohamed rassem's keenness to embody it in his works of art, which have had a great impact on Algerian society in particular and European societies in general

المؤلف المرسل:قليل سارة

مقدمة:

يعتبر التراث العمراني جزءا هاما يعكس هوية أي بلد، فهو يجسد اهتمام المجتمع بالحفاظ وتدوين وتخليد هذا التراث قصد التمسك بهويته وثقافته الشعبية لإثبات ذاته وإبراز ما يميزه عن غيره، ومن بين هذه المجتمعات المجتمع الجزائري الذي سعى أفراده بشتى الطرق للمحافظة عليه من الاندثار وإبقاءه رمزا يعكس هذا البلد في منطقة البحر المتوسط، وهذا ما هدف إليه الفنان التشكيلي في أعماله الفنية من خلال تجسيد التراث العمراني للمنطقة بمختلف تفاصيله ليبرز تاريخ بلده ويعرف الأجيال القادمة بهويتهم، ومن بين هؤلاء الفنانين الذين نجحوا في الحفاظ والتعريف بهذا الموضوع الفنان محمد راسم. فكيف عُكس التراث العمراني للجزائر في أعمال الفنان التشكيلي الجزائري محمد راسم؟ وكيف سعى للحفاظ عليه باعتباره جزء كبير من هويته وأصالته؟

2.التراث العمراني:

هو كلما شيده الإنسان من مدن وقرى وأحياء ومبان مع ما تتضمنه من فراغات ومنشآت لها قسمة عمرانية وتاريخية أو علمية أو ثقافية أو وطنية وإن امتد تاريخها إلى فترة متأخرة ،وتشمل مباني التراث العمراني القصور والمباني التاريخية والقرى والأحياء التراثية ومراكز المدن القديمة ويدخل في ذلك القلاع والأبراج الدفاعية والمساجد، والمدارس والحمامات ، وما في حكمها أو ما يشبهها من مبان كان تأسيسها مرتبطا بأحداث تاريخية أو دينية أو اجتماعية أو اقتصادية أو أمنية أو سياسية أو ثقافية أو كان إنشاؤها يعكس نمطا أو أنماطا وطرزا فنية في العمارة أو الفنون الزخرفية المتصلة بها، بحيث تكون ذات دلالة على مدرسة فنية أو حضارة تاريخية لها جغرافية معينة أو فترة زمنية محددة.(علي بن ابراهيم الغبان، وآخرون، 1431هـ:14)

ويمكن تحديد كل هذا التعريف وتصنيف التراث العمراني وفقا لما يلي:

–المباني التراثية: وتشمل المباني ذات المباني التاريخية والأثرية والفنية والعلمية والاجتماعية بما فيها الزخارف والأثاث الثابت المرتبط بها والبيئة المرتبطة بها.

–مناطق التراث العمراني: وتشمل المدن والقرى والأحياء ذات الأهمية التاريخية والأثرية والفنية والعلمية والاجتماعية بكل مكوناتها من نسيج عمراني وساحات عامة وكرق وأزقة وغيرها.

–مواقع التراث العمراني: وتشمل المباني المرتبطة ببيئة طبيعية متميزة على طبيعتها أو من صنع الإنسان.(بوجمعة خلف الله، ضهير أمير عبد الحميد محمد، 2010م:91)

إن التراث وعاء الحضارة وماعون الثقافة، فهو يحفظ الخصائص الجوهرية للأمة التي تميزها عن سواها فتجسد عراقتها، وتسجل تاريخها، والتاريخ هو دالة الأمة ومصدر إلهامها خصوصا إذا كان التاريخ يستند إلى منظومة حضارية لها تجاربها التي تراكمت عبر العصور، فشكلت هويتها ورؤيتها الخاصة، وحددت آفاقها المستقبلية.(علي بن ابراهيم الغبان، وآخرون، 1431هـ:14)

ولا ننسى أن أهمية التراث العمراني والمعماري لأي بلد تدفع بمجتمعه للسعي إلى الحفاظ عليه وبالتالي فإنه يساهم في عكس جانب من جوانب الهوية الوطنية لغرض بُعدها التاريخي و أصالة شعبها وحضارتها خاصة إذا تعرض هذا البلد لمجموعة من التغيرات ليس بإرادته ولا بيده وهذا ما شهدته الجزائر في فترة من الفترات، وهي فترة الاستعمار الذي حاول فيها هذا الأخير طمس الهوية الجزائريةمن كل جوانبها فما كان على أفراد هذا البلد سوى السعي للمحافظة على هذا التراث، ومن بين هذا المجتمع مجموعة من الفنانين وعلى رأسهم الفنان التشكيلي الجزائري محمد راسم

الذي سعى إلى تخليد هذا الفن من خلال الصور واللوحات الفنية أو بالأحرى من خلال ما يعرف بالمنمنمات ليصل صداها إلى مختلف البلدان فالحفاظ على التراث العمراني ليس فقط من خلال الحفظ والترميم، ولكن أيضا من خلال تخليد هذا النوع من التراث من خلال الصورة الفنية التي تبقى شاهدة على تلك الفترة بمختلف تفاصيلها. كما تعتبر بمثابة مرجعية لازمة في بعض الأحيان لترميم المباني وإعادة تشكيلها في حالة اندثارها سواء بسبب العوامل الطبيعية أو غير طبيعية.

3.الفن التشكيلي الجزائري:

إن الحديث عن الفن التشكيلي في الجزائر يستدعي بنا الحديث عن بداياته التي كانت مرافقة للاستعمار رغم أن الجزائر زخرت بفن رائع مثلها مثل دول شمال إفريقيا وهو فن الطاسيلي الذي جسد رسومات عكست على السطوح الصخرية، وهي عبارة عن رسومات لأشكال إنسانية وحيوانية، فمنها ما هو مرسوم بمفرده أو معزول عن السطوح الصخرية، ومنها ما هو مرسوم على شكل مجموعات معقدة ومتداخلة فيما بينها. وقد كانت هذه الرسومات بوادر فن ينم عن عبقرية قبائل تلك المناطق، ومثلت الحيوانات والإنسان، وعلى الطبيعة والمحيط الذي كان يعيش فيه الفرد وتلك الظروف الصعبة التي عاشها إبان تلك الفترة(محمد خالدي، 2009م:45)، ويعتبر هذا الفن جزءا من التراث الجزائري، هذا وقد ارتبطت بدايات الفن التشكيلي الجزائري بالاستعمار الفرنسي.

لقد عرف المجتمع الجزائري الحركة الاستشراقية في جميع مجالاتها مع دخول الجيش الفرنسي إلى أرضه، فمنذ أن وصلت جحافل الجيش الفرنسي إلى أرض الجزائر، حتى سارعت السلطات الاستعمارية إلى وضع يديها على كل المخطوطات، والوثائق العثمانية، وكل ما يتعلق بالمجتمع الجزائري وثقافته ودينه وتاريخه وغير ذلك، ووضعتهم تحت تصرف المستشرقين الذين عملوا كل ما في وسعهم من أجل دراسة وتحليل وترجمة هذا الإرث والرصيد الثقافي، وجمع كل المعلومات حول طبيعة المجتمع الجزائري، والإسراع في توطيد وتهيئة هذا المجتمع، من أجل إدخاله وإدماجه تحت راية الدولة الفرنسية ثقافيا وحضاريا واجتماعيا(محمد خالدي،2009م:91).

إن الحديث عن الفنانين التشكيليين المستشرقين ودورهم في الجزائر يقودنا إلى القول أن الكثير منهم أدمجوا ابتداء من سنة 1744م بسلك المهندسين والمختصين والطوبوغرافيا والذي كان ملحق احتياطي الحرب وأنشئ سلك للضباط المختصين في التأريخ الرسمي "المؤرخين الرسميين"، وسلك الرسامين المساعدين والذي انضم إليه بعض رسامي المعارك الحربية(**visage de l'Algérie heureuse,1992 :7**).

وحرصت الإدارة الاستعمارية الفرنسية على توظيف الرسامين التشكيليين المستشرقين، وحثتهم ودفعتهم إلى السفر للجزائر عن طريق تسهيل إقامتهم فيها والتكفل بإيوائهم، وعملت على تحسيسهم وتوعيتهم بالدور المنوط بهم والمنتظر منهم، والمتمثل إضافة إلى الدور العسكري الموكل للبعض من هؤلاء الرسامين، حيث أن بعضهم وصل إلى الجزائر في إطار الخدمة العسكرية والدور الموكل لهم، كان يتمثل في رسم الصور الإيضاحية المتعلقة بالمعارك التي خاضها الجيش الفرنسي ضد المقاومة الجزائرية، والتي جرت خلال تواجد الاستعمار الفرنسي، حيث أن هذه الصور كانت تستعمل لإيضاح تلك المعارك، وترفق بالتقارير التي كان يبعث بها القادة العسكريون المتواجدون بأرض المعركة إلى السلطات الفرنسية المتواجدة بالضفة الأخرى بباريس (**visage de l'Algérie heureuse,1992 :8**).

ويرى أغلب هؤلاء الرسامين التشكيليين المستشرقين الذين اختاروا أو كلفوا بمعالجة المواضيع الطبيعية، أو مظاهر الحياة الاجتماعية السائدة آنذاك وسط المجتمع الجزائري، إن الجمال الفني في اللوحات التشكيلية، ليس هو حتما نقل الطبيعة كما هي بكل صدق وأمان، وإنما الجمال كما يراه الفنان التشكيلي، ويتصرف فيه بخياله، الفنان لا يقنع بما في الطبيعة من موضوعات جاهزة معدة من ذي قبل، وإنما هو يتجه ببصره في معظم الأحيان نحو تلك الجوانب الناقصة التي لازالت تنتظر من يبرزها ويكملها ويعيد خلقها من جديد. إن الفن ليس هو الطبيعة منظورا إليها من خلال مزاج شخصي، اللهم إلا إذا كانت هي البلبل مسموعا من خلال مزاج شخصي(**A.Malraux,1948 :152**).

وقد صحب هؤلاء الرسامين التشكيليين الذين كان أغلبهم عساكر مجموعة من الفنانين الذين أعجبوا فيما بعد بجمال الجزائر ومناظرها ومنهم الفنان "أوجين دولاكروا" الذي يقف في قمة المستشرقين ولقد توفر له في زيارته للجزائر أن يرسم مئات الرسومات السريعة.

وأشهر لوحة قام بها هذا الفنان للجزائر لوحة "نساء الجزائر"، التي تعد أحد أروع الأعمال الفنية الاستشراقية، ومن بين المستشرقين "أوجين فرومنتان" وأيضا "بيار أوغست رونوار"، والفنان "إتيان دينيه" الذي كان أثر الفن الإسلامي بارزا في فنه، كان مجيئهم إلى الجزائر لفترات متقطعة وبعد تمركز المستعمر جاء البعض منهم واستقروا فيها منهم "إتيان دينيه" وقد كان هؤلاء الفنانين ينقلون العادات والتقاليد والحياة الشعبية لهذا البلد. بعدها كانت أغلب مواضيعهم تصوير البيئة التي يعيشون فيها فالذين سكنوا بالعاصمة رسموا القصبة وضواحيها ، والذين اسقروا بالجنوب نقلوا مشاهد من الحياة المحيطة بهم.

وقد تشكلت مدرسة الجزائر للفن التشكيلي تبعا لتيار الفنانين الذين كانوا يودون الاطلاع على العالم الشرقي، واكتشاف معارفه، وحبهم للأشياء الشرقية بصفة عامة، أو كما كانوا يسمون المستشرقين. هذه الحركة الاستشراقية التي عرفتها الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي، أسست لظهور مدرسة الجزائر للفنون التشكيلية (**visage de l'Algérie heureuse,1992 :67**).

فقد نشأ الفن التشكيلي الجزائري نتيجة للاحتكاك الجزائريين مع الأوروبيين ، متأثرين بالأساليب الغربية الحديثة فتميزت رسوماتهم بأسلوب راقي ومن بين الفنانين الجزائريين الفنان عبد الحليم همش، وأزواو معمري، عبد الرحمان ساحولي، والفنان محمد تمام ومحمد راسم. ورغم تأثرهم بالأساليب الأوروبية إلا أن بعضهم عكس فنه بلمسة فنية إسلامية.

كما استطاع مجموعة من الفنانين من إبراز شخصية الفن التشكيلي الجزائري من خلال الفن الإسلامي، فالفنان الجزائري أخذ كل خصائص هذا الفن وأضاف إليه بعض اللمسات الفنية الجزائرية فهو لا يتمرد على وحدة الفن الإسلامي ولكنه يتجدد من منطقة إلى أخرى بالمحافظة على أصالته وأسسه لما تحمله من مخيلة جمالية، ونرى هذا بوضوح في مدرسة المنمنمات الجزائرية، فمن جهة طور وأضاف ومن جهة أخرى حافظ على شخصية الفن الجزائري بطابع إسلامي، وهذا لا يعني عدم مزجه بالأساليب الغربية فقد دمج بينها بطريقة رائعة مثلما نلاحظ في أعمال محمد خدة، بشير يلس... وأيضا الرسام محمد راسم الذي اشتغل على إحياء مدرسة المنمنمات الجزائرية (عبدالرحمن جعفر الكنعاني،2012م:104).

لقد شهد الفن التشكيلي الجزائري في بداياته لمسة استشراقية عكسها الفنانون المستشرقون الذين كان تأثيرهم واضحا على الفنانين الجزائريين حيث نهلوا منهم ليعكسوا لنا لمستهم للفن التشكيلي الجزائري المتأثر بالأساليب الأوروبية إلا أن بعضهم أخذ هذه الخاصية وأضاف إليها جزءا من الفن الإسلامي ليعكس لوحات تجسد تاريخ الجزائر وتراثها الغني.

إن العديد من الفنانين التشكيليين الجزائريين ساهموا في توثيق تراث بلادهم من خلال لوحات فنية أخذت صدى في مختلف بلدان العالم سواء من خلال عكس تقاليد أو ثقافة أو حتى العمارة التي ميزت بلدهم.

4.التراث العمراني في منمنمات محمد راسم:

–ترجمة الفنان محمد راسم:

هو محمد بن علي بن سعيد بن محمد راسم، ولد بالجزائر العاصمة في 24 جوان 1896م (ابراهيم مردوخ، 2005م:25). ترعرع في عائلة فنية عريقة واتجه نحو فن الزخرفة والتلوين على الخشب، ثم اتجه إلى فن المنمنمات حيث اكتشف سر قواعده الجمالية وأعجب بها في الورشة العائلية حيث تلقى أول تكوينه، فأظهر موهبة فطرية فذة في الرسم والتصميم والتلوين وهو لا يزال في سن مبكرة(نجاة عروة،61).

قام محمد راسم بعدة أعمال منها تزيين العديد من الكتب، كما ترك العديد من لوحاتالمنمنمات الدقيقة وهي موجودة في العديد من المتاحف كالمتحف الوطني للفنون الجميلة بالجزائر، ففي سنة 1917م عهد إليه بتزيين مجموعة من الكتب مثل "الإسلام تحت الرماد"، وكتاب "باربا روس" ، وكتاب" بستان سعدي" وكتاب

"ممر الخيام" (ابراهيم مردوخ،2005:26)

لقد برع الفنان فيما يعرف بالمنمنمات الجزائرية، وفن المنمنمات أو المنمنمة "miniature" هو عمل لوحة فنية بالغة الدقة في التفاصيل ولكن بشكل مصغر، بألوان بديعة وساحرة ممزوجة بلمسة من الجمال. فهي تعني الشيء الدقيق المزوق ذو ملامح صغيرة، في البداية استخدم المسلمون لتصوير مخطوطاتهم فنانين غير مسلمين وبعد مدة من الدراسة والاقتباس والتقليد استطاعوا ممارسة العمل بأنفسهم(محمد حسن زكي، 1981م:23).

وكتعريف أوضح لهذا الفن الذي حمل في طياته عدة أهداف من بينها سعي الفنان للحفاظ على التراث بشتى أنواعه وعكسه في مختلف أعماله، ومنه فإن المنمنمة عبارة عن تزيين المخطوطات والكتب التاريخية والعلمية ببعض الصور التوضيحية.

إن مصدر كلمة "منمنمة" يعتقد أنه مشتق من اسم "ماني" الذي كان معروفا بإرفاقه بعض الرسوم في ثنايا الصفحات والنصوص التي احتواها كتابه الذي سمي "ماني نامة".

يتجلى أثر الفنان محمد راسم في حركة تطور فن منمنمات الشرق الإسلامية أو ما يسمى ب "فن التصوير التصغيري" في منمنماته التي أعطت بادئ ذي بدء المعنى الأرقى لخصائص الجمال الفني في مكونات الهوية الجزائرية وجسدت روح الأصالة في تطوير التراث الفني الإسلامي ووضعته في مسارات التطور التشكيلي المعاصر، وفرضته نوعا فنيا شرقيا إسلاميا راقيا في أروقة الحركة التشكيلية الأوروبية منذ أوائل القرن الماضي رغم احتدام معارك التيارات الفنية(عبد الرحمن جعفر الكنعاني،2012م:28)

لقد نشأ راسم في بيئة اجتماعية تتميز بالتمسك بالتقاليد والأصول والتراث في قلب قصبة الجزائر(محمد عبد الكريم أوزغلة،116)، توفي الفنان في 30مارس1975م.

-التراث العمراني في منمنمات محمد راسم:

كانت أغلب أعمال الفنان تحرص على تجسيد واقع وتراث الجزائر في فترة الاستعمار فلا ننسى أنه شهد هذه الفترة. وقد صاحب النفوذ السياسي الاستعمار السياسي للجزائر محاولات عديدة ومتكررة لطمس الهوية العربية الإسلامية للبلاد في شتى المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وشملت هذه المجالات مجالا آخر متمثل في العمارة بالحرص من طرف الفنيين على استراد الأساليب العمرانية والمعمارية والأوروبية لبناء المساكن والمرافق العامة والمنشآت العسكرية. وبما أن سياسة الاستعمار كان هدفها طمس التراث العربي الإسلامي والسعي إلى إنشاء مدن ومنشآت أوروبية بكل مقوماتها.

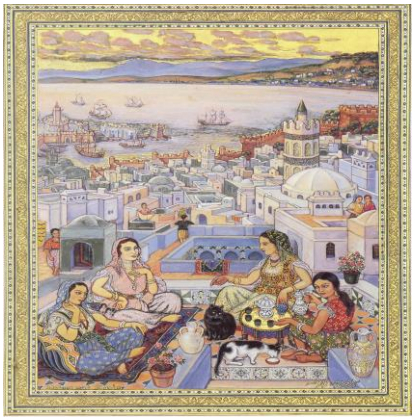

لقد حاول الفنان من خلال العديد من أعماله تصوير هذا التراث لبلده وهذا ما نلاحظه مثلا في لوحة "نهج سيدي عبد الله-القصبة" "rue sidi abdallah-kasaba" ومنمنمة "ليلة رمضان" "nuit de ramadan"، أيضا منمنمة "داخل فيلا بالجزائر" "dans une villa d'alger"، ومنمنمة "غداة زفاف" "lendemain de mariage" ومنمنمة "شرفة القصبة" وغيرها من الأعمال التي حملت في طياتها التراث المعماري والعمراني للجزائر وخاصة أنها مثلت الخصائص المعمارية الإسلامية وجسدت النسيج المعماري الذي طبع الجزائر.

منمنمة "شرفة القصبة"

ورغم أن تكوين "راسم" مزدوج اهتم بالفن الإسلامي والمدارس الغربية إلا أن هدفه الأكبر هو خدمة التراث العربي الإسلامي، وقد عكس هذا من خلال العمارة الإسلامية والطبيعة الشرقية والملامح العربية المحلية...

وإذا ما تحدثنا عن الهندسة المعمارية ذات الطابع الإسلامي في معظم أعماله، فقد استطاع محمد راسم إبرازها بشكل رائع متضمنة عدة دلالات فقد شكلت العمارة الإسلامية موضوعا تشكيليا اهتم به الفنانون لما يحمل في طياته من إشارات ومعان.

فالحضارة العربية الإسلامية تعتبر من أهم المصادر الملهمة للفن الجزائري، لقد ورثت الجزائر معالم كثيرة منتشرة هنا وهناك ترجع أصلا إلى الحضارة العربية الإسلامية، كما جاء العرب بالإسلام إلى أرض الجزائر منذ أربع عشرا قرنا، حاملين معهم ضمن ما حملوه عناصر من قوتهم، وهكذا

نشأت المدن والقصور والمساجد وهي متأثرة في العصور الإسلامية الأولى إلى حد بعيد في عناصرها المعمارية والزخرفية بمدن وقصور ومساجد، وكان لأجدادنا بعد ذلك الفضل في نقل هذه الحضارة العربية الإسلامية إلى ربوع الأندلس، حيث بقيت مزدهرة مدة ثمانية قرون(ابراهيم مردوخ،2005م:18)، فعلى سبيل المثال كان أثر الأتراك واضحا في الجزائر الذين أدخلوا عناصر جديدة في الفنون الإسلامية وأغلب الآثار الإسلامية لاتزال قائمة بالرغم من التخريب الذي تعرضت له الجزائر من قبل الاستعمار وخير شاهد لهذه الفترة مساجد الجزائر العاصمة والقصور المنتشرة بحي القصبة(ابراهيم مردوخ،2005م:17). وهذا ما سعى معظم الفنانين إلى تجسيده وعلى رأسهم هذا الفنان الجزائري في أغلب أعماله كما قد أشرنا إلى بعض منمنماته التي جسدت العمارة الإسلامية.

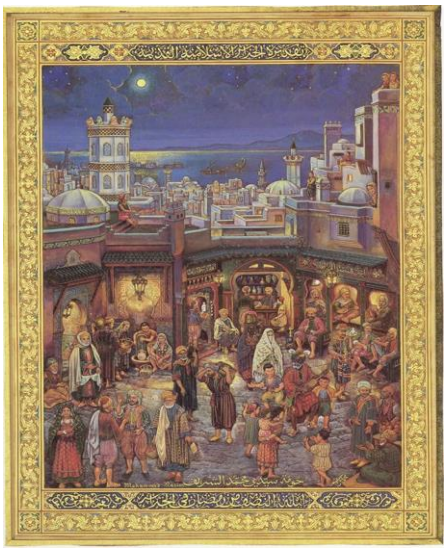

وإذا رأينا منمنمة "ليلة رمضان" فقد ضم هذا العمل عدة عناصر معمارية إسلامية عكست الجزائر، فمثلا نجد مآذن شغلت هذه اللوحة وهي من ميزات الحضارة الإسلامية على مر العصور، وأبرز مأذنة وظفها الفنان راسم هي ذات قاعدة مربعة المسقط يعلوها بدن مثمن، كما زين العمل مأذنة أخرى وهي مأذنة قلمية وهذا النوع من المآذن عرف انتشار واسع وبروز مع العثمانيين وأثرهم في الجزائر. فهذا العنصر المعماري هو بناء مرتفع يقع عادة في أركان المسجد(بلحاج طرشاوي،2006م:13).

أما إذا رجعنا إلى مدلولها كشكل معماري ديني بغض النظر عن هيئتها فعلينا الرجوع إلى دورها، إذ هي المكان الذي يرتقيه المؤذن ليعلن عن الصلوات الخمسة في أوقات مختلفة من اليوم، داعيا في كل مرة إلى عبادة الله الواحد ومن ثمة كان للمئذنة قداستها في الإسلام ومدلولهامنمنمة "ليلة رمضان" العميق تشهد بانتصابها في السماء على الوحدانية الإلهية(سعد زغلول،وآخرون،1986م:555)

وتجدر الإشارة أن هذا النوع من المآذن التي رسمها الفنان كانت من آثار العثمانيين في الجزائر، ونجد هذا النوع بكثرة في الجزائر العاصمة وخاصة في القصبة، كما نجده في قسنطينة ووهران، ولكن كان للعاصمة الحظ الأوفر من هذه المآذن فهي تعكس الأسلوب العثماني في هذا البلد وهذا ما جسده الفنان.

في هذا العمل يجسد الفنان حومة سيدي محمد الشريف والذي يظهر فيه جزءا من هذا المسجد المسمى أيضا باسم هذا الداعية وأحد أولياء الذين كان أثرهم في الجزائر، فقد سعى الاستعمار إلى طمسها ولكن الفنان سعى من خلال تجسيدها في العمل للحفاظ عليها من الاندثار وتخليدها للأجيال. ففي البداية كان المسجد عبارة عن ضريح تم بناءه ألحقت به فيما بعد بعض المرافق كالمسجد وغرف السكن وغيرها، وتحتوي زاوية محمد الشريف الزهار على ساحة بها عدة قبور كما تضم أماكن للوضوء وبيت مربع الشكل مزين ببعض الأعلام وداخله قبر الولي، وتحتوي هذه الزاوية على مسجد بمنارة ودهليز به قبور، وبيتين أحدهما يحوي ضريح ابن محمد الشريف، والبيت الثاني عبارة عن مقر لوكيل الضريح، ويوجد بها مقبرة وثلاثة غرف للسكن(سعد الله أبو القاسم، 1998م:120).وكانت هذه الزاوية محلا للدراسة والتعليم، فمن الدروس التي كانت تقام فيها درس التوحيد في رمضان، بعد احتلال مدينة الجزائر وعلى الرغم من بقاء الزاوية في يد وكيلها فقد منعت فرنسا الدفن في مقبرة سيدي محمد الشريف وهذا دون مبرر وقامت بإغلاقها في سنة الاحتلال 1830م، ثم أعادت فتحها وبنت بقربها مدرسة وقد بقيت هذه الزاوية في يد وكيلها الذي هو من أحفاد محمد الشريف الزهار(ياسمين بودريعة،2006م:45).

وتعتبر هذه الزاوية بكل مرافقها من مسجد ومساكن تعتبر بمثابة تراث معماري للجزائر شهدته في فترة معينة، جسدها الفنان في عمل فني لتبقى تعكس جزءا من بلاده خاصة أن الاستعمار قام بإغلاق هذه الزاوية وحاول طمس هوية هذا المكان.

وإذا ما رجعنا إلى تفاصيل العمل فيظهر عدد من القباب، والقبة الرئيسة التي كانت بارزة هي التي يمكن أن تكون للمسجد، كما نلاحظ مجموعة أخرى من القباب ولكن بأحجام وهذا الشكل من القباب يطابق في درجة أيقونية شكل القباب المنمنمة للزوايا التي كانت تعرف في عمارة المسجد المحلي الجزائري ذو الطابع المغاربي التركي والتي كانت شائعة الاستخدام(وزارة الأخبار،1970م:62). فهي غالبا ما تعلو قاعة الصلاة

المربعة الشكل فتكون سقفا لها، هذا إذا كان المسجد صغيرا، أما إذا اتسع قليلا بحيث أن قبة واحدة لا تكفي، فتبنى بجانبها قبة أو قباب أخرى ثانوية، ولصغر مسجد فقد احتوى على قبة واحدة. فالقبة كشكل هندسي معماري له مدلوله إذ أن البعض يعتبر القبة تمثيلا للفضاء الرحب والسماء الواسعة...(الشيخ طر الوالي، 1988م، 275).

كما يعود الفضل للعثمانيين الذين تركوا هذا الأثر وهذا النوع من القباب الكبيرة والبارزة وكانت من بين الأهداف منها هو كسب مساحة أكبر وتفادي الأعمدة خاصة في المساجد وأثرهم بقي واضحا في الجزائر.

ومن خصائص التراث المعماري التي سعى راسم إلى ابرازها في عمله هو خاصية للفن الإسلامي أو بالأحرى تعكس جزءا من التراث الجزائري وهو استعمال الزليج المزخرف الذي يعود إلى الأندلس وقد استعمل في تزيين الجدران والواجهات وحتى المآذن والقبب، وهذا ما نلاحظه في هذا العمل فمثلا في الجزء المخصص للنافورة فهي مزينة كلها بالزليج المزخرف وهذه الخاصية عكست على معظم أحياء القصبة التي كانت محط الأنظار. واستخدم هذا النوع من الزليج لم يكن في خارج البنايات فقط بل شغل حتى الجزء الداخلي منها.

ومن ميزات هذه المنمنمة التي حاول محمد راسم أن يعكس من خلالها التراث المعماري للقصبة من خلال تجسيد الأعمدة، فالعمارة الإسلامية استخدمت مجموعة من الأعمدة في مختلف المناطق التي شهدت الإسلام والفتوحات الإسلامية، وقد وضع العثمانيون بصمتهم في هذا الأمر فرغم وجود الأعمدة من زمن بعيد إلا أن هناك أنواع لم تعرفها الجزائر قبلا وقد ساهم العثمانيون في إدخالها، ومنها الأعمدة الملتوية التي شهدتها أغلب أحياء القصبة سواء في خارج المبنى أو حتى داخله.

فمن بين خصائص العمارة المحلية بالجزائر والتي تعود للفترة العثمانية استعمال الأعمدة على نطاق واسع، فبالإضافة إلى الناحية المعمارية حيث تعتبر من وسائل الدعم الأساسية فقد استعملت بهدف زخرفي جمالي(علي خلاصي، 2007م:106).

وقد جسد محمد راسم العمود الملتوي في واجهة أحد المحلات فقد برز العمود ذو البدن الأسطواني ذو الالتواء مع تاج مزخرف زخرفة بسيطة، وهناك ميزة برزت على الأعمدة في العمارة الإسلامية وهي إضافة التاج ذو الرقبة الطويلة وصفحة مربعة.

وأيضا من الخصائص التي عكست في هذه المنمنمة نلاحظ مجموعة من العقود التي زينت هذه العمارة، والعقد هو عنصر معماري مقوس يعتمد على نقطتي ارتكاز، ومن العقود المنجزة في العمل العقد المدبب مثل الموجود في باب مدخل المسجد وباب الدكان هي من بين العقود التي ميزت العمارة في الجزائر عامة وفي القصبة بشكل خاص.

لقد عكست منمنمة "ليلة رمضان" خاصية أخرى طبعت العمارة في الجزائر والتي حاول الفنان إبرازها وهو وجود عنصر الزخرفة سواء كانت نباتية أو هندسية أو خطية وقد تنوعت في هذا العمل الفني وجاءت أغلبها في شريط يزين البنايات فتبدو متكررة ومتداخلة فيما بينها متوالية ومتشابكة مبرزة الانسجام والتواصل الذي بينها.

فلكل هندسة معمارية أصولها وتأثيراتها، والفن المعماري في الجزائر له مميزاته وأنماطه، وكانت الزخرفة أحد المميزات التي طبعت العمارة في الجزائر بصفة عامة والقصبة بصفة خاصة(علي خلاصي،2007م:97). هذه الزخرفة الإسلامية تعتبر من أبرز مظاهر الحضارة الإسلامية التي جسدت العمارة في هذا البلاد. وقد طبع هذا العنصر خاصية التجريد ومن خلاله سعى الفنان إلى تصميم وابتكار رسومات فنية زخرفية متنوعة وفق إيقاع جمالي باهر وضوابط هندسية مرتبة جسدها في معظم إنتاجاته(علي أحمد سمير كامل، 2012م:2،3).

واستطاع الفنان أيضا أن يجسد التراث المعماري من خلال العناصر التي برزت في أحياء القصبة وفي الجزائر كافة بما يعرف بالظلات وشكلت بما يسمى "القرمود" وهي عبارة عن الغطاء البارز أعلى الأبواب والأجزاء الأمامية من الأروقة وتستعمل للاحتماء من المطر ولأغراض جمالية(علي خلاصي،2007م:127)كما تبين مداخل البنايات وقد بينها الفنان محمد راسم في هذا العمل الفني.

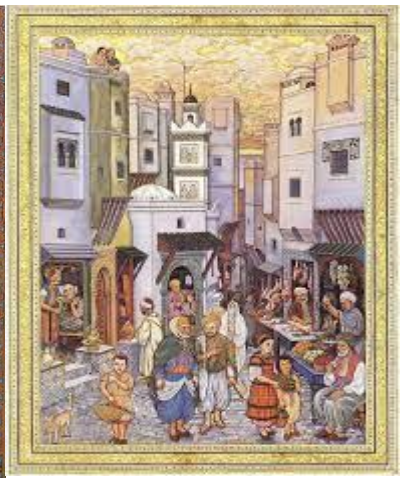

"داخل فيلا في الجزائر العاصمة"

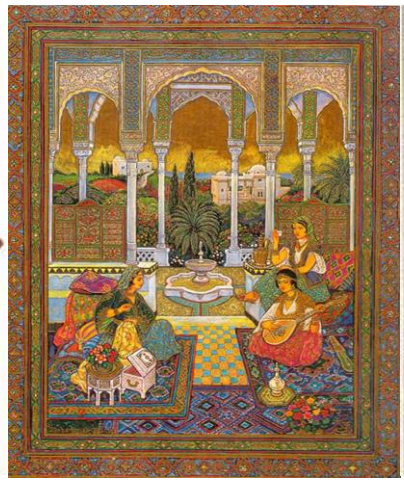

"نهج سيدي عبد الله–القصبة–"

"داخل المسجد"

5. خاتمة:

لقد عكست معظم منمنمات الفنان التشكيلي الجزائري محمد راسم التراث العمراني والمعماري في طياتها فمثلما جسدت منمنمة "ليلة رمضان" خصائص العمارة الإسلامية التي طبعت الجزائر والتي شكلت جزءا لا يتجزأ من تراثها وحقيقة تعكس هويتها، نجد هذا الشيء أيضا في منمنمة "شرفة القصبة" مشكلة معظم العناصر المعمارية التي لاتزال شاهدة من شواهد التراث المعماري لهذا البلد فمثلما سعى الفنان إلى إبراز الجزء الخارجي من هذه العمارة، أيضا بين الجانب الداخلي لها كما تبينه منمنمة "داخل فيلا بالجزائر"...هذه المميزات عكست التراث العمراني والمعماري للقصبة التي تعد جزءا مهما من الجزائر العاصمة والتي كانت محورا من أكثر المحاور التي اهتم بها الفنان في مسيرته الفنية.

سعى الفنان التشكيلي محمد راسم من خلال تجسيد التراث العمراني والمعماري لبلاده إلى الحفاظ عليه ليكون شاهدة من شواهد الجزائر في حال اندثاره خاصة أن الجزائر مرت بفترة الاستعمار الذي حاول طمس هويتها، كما أن هذه الصورة تعتبر بمثابة مرجعية حتى لعالم الآثار في حال أعاد بناء أو ترميم العمارة خاصة التي تبرز هوية أي بلد، إن منمنمات محمد راسم هي مصدر ناقل لثقافات الشعوب والحضارات السابقة وساهمت إلى حد كبير في الحفاظ على هذا التراث.

6. قائمة المراجع:

1.علي، بن ابراهيم الغبان، وآخرون،(1431هـ)، لماذا الاهتمام بالتراث العمراني، الرياض،الهيئة العامة للسياحة والآثار.

2.ابراهيم، مردوخ، (2005م)، مسيرة الفن التشكيلي بالجزائر، الجزائر، دار هومة، الطبعة الأولى.

3.نجاة، عروة،(ب.ت)، من وحي التراث المعماري والحرفي في الجزائر، الجزائر، دحلب للطباعة.

4.محمد، زكي حسن، (1981م)، التصوير في الإسلام عند الفرس، بيروت، دار الرائد العربي.

5.عبد الرحمان جعفر، الكنعاني، (2012م)، منمنمات محمد راسم–روح الشرق في الفن التشكيلي–، الجزائر، وزارة الثقافة.

6.محمد عبد الكريم، أوزغلة،(ب.ت)، مقامات النور، الجزائر، دار الأوراس.

7.سعد، زغلول، وآخرون،(1986م)، دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الكويت، منشورات ذات السلاسل، الطبعة الأولى.

8.سعد الله، أبو القاسم، (1988م)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، جزء الخامس.

9.وزارة الأخبار، (1970م)، المساجد في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

10.الشيخ، طر الوالي، (1988م)، المسجد في الإسلام ، لبنان، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى.

11.علي، خلاصي، (2007م)، قصبة مدينة بالجزائر، الجزائر، دار الحضارة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الجزء الثاني.

12.بلحاج، طرشاوي،(2006م)، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية دلالتها الثقافية والفنية، أطروحة دكتوراه، تخصص فنون شعبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر.

13.ياسمين، بودريعة، (2006م)، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بين المال والبايلك، أطروحة الدكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر.

14.محمد، خالدي،(2009م)، تحف الفنون التشكيلية بالجزائر خلال حقبة الاستعمار الفرنسي1830-1962، أطروحة دكتوراه، تخصص فنون شعبية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر.

15.بوجمعة خلف الله، ضهير أمير عبد الحميد محمد،(2010م)، دور التوثيق الإلكتروني في الحفاظ على التراث العمراني والمعماري في فلسطين، مجلة العمران والتقنيات الحضرية، العدد2، 12الصفحة.

16.علي، أحمد سمير كامل علي، (2012م)، التجريد في الفن الإسلامي، مؤتمر العلمي الدولي "الفن في الفكر الإسلامي"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن.

17.visage de l'Algérieheureuse, exposition organisée par le cercle algérianisâtes a l'occasion des rencontres du trentenaire au palais des congrès de versailles ; du 16 au 19 janvier 1992, éditongalien.

18.Malraux,A, (1948), la criation artistique-skira.